

الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى

أ. د. حامد طاهر (*)

لم يمض على ظهور الإسلام أكثر من قرنين ، حتى كانت الحركة العلمية والثقافية قد اتسعت دائرتها ، وتعددت مجالاتها ، وبرز فيها أعلام فى ميادين التفسير ، والسنة النبوية ، والفقه ، وأصوله ، وعلم الكلام ، والتصوف ، إلى جانب علوم اللغة والأدب . وبالنسبة إلى الصوفية المسلمين ، فقد استبطعوا أن يكونوا لأنفسهم دائرة خاصة بهم ، وبدأوا يستخلصون من تجاربهم الفردية القواعد والمبادئ والآداب التى تميز طريقتهم ، بل إنهم استخدموا فى إطار الخطاب الدينى (الوعظى والفقهى والكلامى) لغة خاصة بهم ، ومصطلحات ذات دلالات محددة ، تعارفوا عليها فيما بينهم ، ثم راحوا يتحدثون بها إلى الناس فى المجتمعات الإسلامية .

وقد ظل الصوفية المسلمون يمارسون طريقتهم القائمة على الإيغال فى العبادة (= التعبد) ، والزهدة فى الدنيا ، طيلة قرنين من الزمان . وهى كما يلاحظ طريقة عملية ، تعتمد أساساً على التجربة الفردية لكل من ينخرط فيها ، ويكرس نفسه لها . ومهما قيل عن تأثر التصوف الإسلامى فى هذه المرحلة الأولى ببعض التيارات الأجنبية من الثقافات والأديان التى عرفها المسلمون حينئذ (وأهمها المسيحية والبوذية) إلا أن المصدر الإسلامى (المتمثل فى القرآن

(*) نائب رئيس جامعة القاهرة السابق ، والأستاذ بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم .

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

الكريم والسنة النبوية ، وسيرة السلف الصالح) كان هو النبع الذى استمد منه الصوفية المسلمون معظم مبادئهم ، وأساليب حياتهم الخاصة فى التعبد والزهد^(١) .

وابتداءً من القرن الثالث الهجرى ، بدأ التصوف الإسلامى يخرج من الاقتصار على الجانب العملى فى ممارسة التجربة الروحية إلى كونه "علما" من "العلوم الحادثة فى الملة" - على حد تعبير ابن خلدون^(٢) . حينئذ أخذ الصوفية فى وضع المؤلفات الخاصة بهم ، والتي راحت تتطور منهجياً حتى ساعدت بجدارثها الذاتية من ناحية ، وشعبيتها التى حظيت بها من ناحية أخرى، على تثبيت مكانة التصوف داخل المجتمعات الإسلامية ، وإضافته إلى منظومة العلوم الدينية كالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والتفسير والحديث .

لكن الموقف المعارض من الفقهاء بصفة خاصة للصوفية دفعهم إلى بسط الحديث عن أصول طريقتهم ، والمصادر الإسلامية التى اعتمدوا عليها ، وبخاصة القرآن الكريم والسنة النبوية ، بل إنهم راحوا يتحولون من موقف الدفاع عن التصوف إلى مهاجمة الفقهاء الذين أطلقوا عليهم مصطلح "علماء الرسوم" أى الشكليات التى لا تنفذ إلى جوهر الدين ، وروحه .. وهكذا كان لهجوم الفقهاء على الصوفية رد فعل لدى هؤلاء ظهرت أشكاله فى مؤلفاتهم المتعددة والمتنوعة ، وهو الأمر الذى دفع "علم التصوف" إلى مزيد من النضج والاكتمال .

لقد نشأت داخل طائفة الصوفية فرق متعددة ، اتبعت كل منها شيخاً بعينه ، التزمت بمنهجه ، واقتدت بسلوكه ، ثم احتفلت بعد ذلك بمولده^(٣) .. لكننا فى هذا البحث لن نتناول هذه الفرق ، وطرائق شيوخها المتعديدين ، وإنما سوف نقتصر على أبرز الأفكار الرئيسية التى ظهرت فى مجال التصوف

الإسلامي ، مشيرين إلى ارتباطها الوثيق بالشيوخ الذين جاءوا بها ، وبسطوها ، ودافعوا عنها ، حتى أصبحت مقترنة دائماً بأسمائهم . وقد حصرنا هذه الأفكار العشرة فيما يأتي :

- ١- فكرة التعبد
- ٢- فكرة الزهد
- ٣- مجاهدة النفس
- ٤- فكرة المعرفة
- ٥- فكرة الولاية
- ٦- فكرة الملامة
- ٧- فكرة الحلول
- ٨- فكرة الفناء
- ٩- فكرة الإشراق
- ١٠- وحدة الوجود

وفيما يلي بيان مركز عن كل واحدة من هذه الأفكار .

١- فكرة التعبد :

يكاد يجمع مؤرخو التصوف الإسلامي على أن البداية الحقيقية للتعبد أو الإيغال في العبادة إنما يرجع إلى جماعة أهل الصِّفة ، الذين اتخذوا من مسجد المدينة في حياة الرسول ﷺ سكناً لهم ، وكانوا في غالبيتهم من فقراء المهاجرين ، وكبار السن الذين لا يقوون على العمل والتجارة ، ولذلك كانوا يقضون نهارهم ، ومعظم ليلهم في الإكثار من الصلاة ، ومداومة الصوم ، وكان من آدابهم أنهم لا يطلبون من أحد شيئاً ، أى لا يتسولون ، بل كانوا يقبلون ما يفيض به عليهم الرسول ﷺ وأغنياء المسلمين في المدينة من الهدايا والصدقات^(٤) .

ومما تجدر ملاحظته هنا أن الرسول ﷺ لم يأمرهم بهذه الإقامة التعبدية في المسجد ، وكذلك لم ينههم عنها . وهذا يعنى إقرارهم عليها . وإذا أردنا أن نتعرف على منهج الإسلام الوسطى والمعتدل بين العبادة والعمل ، كان علينا أن

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

نستحضر حكاية الثلاثة نفر الذين جاءوا إلى أحد بيوت رسول الله ﷺ لكى يطلعوا على طريقته فى العبادة ، وراح كل منهم يفتخر بما يفعله ، والرسول ﷺ يسمعهم من خلف الباب . قال أحدهم : أنا أقوم الليل كله . وقال الثانى : وأنا أصوم العام كله . وقال الثالث : وأنا لا أتزوج النساء .. فخرج عليهم ﷺ قائلاً : أما أنا فأبني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء .. وأنا خير منكم .

وهكذا فإن دلالة الحديث واضحة فى أن يزواج المسلم بين ممارسة شئون حياته الدنيوية ، والتعم بطيباتها التى أحلها الله تعالى له ، وبين عبادته المعتدلة دون غلو أو رهبة . لكن الحديث يدلنا أيضاً على أن بعض المسلمين الأوائل قد فهموا الإسلام على أنه اقتصار فقط على التعبد ، وانسحاب كامل من الحياة .

ولعلنا من جانبنا قد نلتمس لأمثال هؤلاء بعض العذر . فالإنسان عندما يتقدم به العمر ، ويكون قد أمضى معظم حياته فى إشباع شهواته من الدنيا ، يتقلب عليه الشعور بالملل ، والإحساس بالضعف والإنهاك . وحينئذ لا يكون أمامه سوى الإقبال على العبادة والاستعداد لما بعد الموت .

لكن الصفحة الأخرى ، التى كانت فى الغالب أمام هؤلاء المتعبدین المسلمين ، هى تلك الصفحة التى تتناول سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة ، وتحنثه فى غار حراء (الليالى ذوات العدد) معتزلاً ببيته وقومه ، ومنكباً على التأمل والتفكر والتدبر فى ملكوت السماوات والأرض^(٥) ومما لا شك فيه أن الصوفية المسلمين قد وجدوا فى هذا (التحنث) سبيلاً موصلاً إلى القرب من الله تعالى ، وإذا كان قد أثمر لدى الرسول ﷺ ظهور مبعوث العناية الإلهية (جبريل) له ، ونزول الوحي عليه ، فإن هذا المنهج فى العزلة والتوحد والتأمل قد أعطى

للسوفية المسلمين (المتعبدين) مبررًا لاتباعه ، آمليْن أن يصلوا إلى مستوى عال من الرضا الإلهي ، والتعرض لبعض النفحات التي لا تضاهيها أو حتى تقترب منها كل مباهج الدنيا الزائلة .

٢- فكرة الزهد :

الزهد هو الدعامة الثانية - بعد التعبد - التي قام عليها التصوف الإسلامي خلال فترة نشأته . وقد أفاض شيوخ الصوفية في تعريف الزهد ، وتحديد أصوله ، وبيان طرائقه ومستوياته ، حتى بلغت الأقوال فيه كما يشير الغزالي (ت ٥٠٥) حوالى مائة تعريف . أما القشيري (ت ٤٦٥) السابق على الغزالي ، فيؤكد أن السلف قد اختلفوا في تحديد ماهية الزهد ، لكنه يرجع ذلك إلى رؤية كل منهم حسب تجربته وذوقه^(٦) ولا شك أن تلك المادة الغزيرة عن الزهد قد أتاحت للغزالي أن يخصص له في كتابه (الإحياء) حوالى خمس وعشرين صفحة (من القطع الكبير) مستعرضا تعريفاته ، ومصادره من القرآن والسنة ، وسيرة الصحابة والتابعين ، وكذلك ما روى عن الأنبياء السابقين ، والسلف الصالح من المسلمين^(٧) .

ويرى الغزالي أن معظم تعريفات الزهد ترجع إلى أصل واحد هو : "انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه" وهو يشمل مستويين :

أ-العدول عن الدنيا إلى الآخرة .

ب-العدول عن كل ما سوى الله إلى الله تعالى - وهو الأعلى^(٨) .

ويفرق الغزالي بين الزهد الكامل ، والزهد الناقص ، وكذلك الزهد الحقيقي وغير الحقيقي . يقول : "وعلامة الزهد : الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ، ولست زاهداً

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

مطلقا . وإن لم يكن مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يقدر عليه .. لا يقدر على تركه" .

وللزهد من حيث قوته وضعفه ثلاث درجات :

الأولى وهى الأدنى : أن يزهد فى الدنيا ، وهو يشتهيها ، وقلبه مائل إليها ، ونفسه ملتفتة لها ، لكنه يجاهدها ويكفها .

والثانية ، وهى المتوسطة : أن يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها ، بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كمن يترك درهما من أجل درهمين ، وإن كان يحتاج لانتظار قليل .

والثالثة ، وهى الأعلى : أن يزهد طوعا ، ويزهد فى زهده ، فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا ، إذ عرف أن الدنيا لا شيء .. وهذا هو الكمال فى الزهد . وسببه كمال المعرفة^(١) .

أما من حيث المرغوب فيه ، فإن الزهد ينقسم عند الغزالي أيضا إلى ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن يكون المرغوب فيه : النجاة من النار ، وسائر آلام ما بعد الموت ، وهذا ما يطلق عليه : زهد الخائفين .

الدرجة الثانية : أن يرغب فى ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة فى الجنة ، وهو ما يطلق عليه : زهد الراجين .

الدرجة الأعلى : ألا يكون له رغبة إلا فى الله ، وفى لقائه . فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ولا إلى اللذات ، وإنما يجعل الله تعالى مقصوده الوحيد .. لأن من طلب غير الله فقد عبده . وكل مطلوب معبود . وكل طالب عبد . وطلب

غير الله من الشرك الخفى . وهذا هو : زهد المحبين ، وهم العارفون .
لأنه لا يحب الله تعالى إلا مَنْ عرفه^(١٠) .

وأخيراً ينقسم الزهد من حيث المرغوب عنه (أى المتروك) إلى ثلاث درجات :

الأولى وهى الأعلى : الزهد فى كل ما سوى الله تعالى .

الثانية : كل صفة للنفس فيها متعة .

الثالثة : المال والجاه وأسبابهما^(١١) ، إذ إليهما ترجع حظوظ النفس .

وهكذا نلاحظ أن الغزالي قد جعل من فكرة الزهد نظريه متكاملة ،
تتنوع إلى مجالات ، وتتدرج فى مراتب ، وتتحول من مجرد دعامة عملية فى
التجربة الصوفية إلى مذهب نظرى يتصل بمعرفة الله تعالى ، ويقوم على
إدراك حقيقة متطلبات النفس البشرية ، وما تقدمه لها الحياة الدنيا من مظاهر
عابرة ، ومغريات خداعة !

٣- مجاهدة النفس :

تعد فكرة مجاهدة النفس هى حجر الزاوية فى التصوف الإسلامى كله .
وهى لا تقتصر فقط على المرحلة الأولى من الطريق الصوفى ، بل إنها تظل
حاضرة فى كل مراحل التجربة الصوفية ، لأنها لا تعنى فقط فطام النفس عن
الخشوع للشهوات ، وحرمانها من الم لذات الدنيوية وخاصة فى بداية الصوفى ،
وإنما تشمل أيضا محاربة كل الأحاسيس التى ترتبط بأداء الواجبات والشعور
بالرضا عن الذات فى نهاية الطريق الصوفى - هذا إذا صح أن كانت له
نهايات !

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

اعتمد الصوفية المسلمون فى تصنيف أنواع النفوس الإنسانية على ثلاث آيات وردت فى القرآن الكريم ، تتعلق إحداها بالنفس الأمارة ، والثانية بالنفس اللوامة ، والثالثة بالنفس المطمئنة . ويعرف الكاشانى (ت ٧٣٥هـ) كل واحدة من هذه النفوس على النحو التالى :

النفس الأمارة : هى التى تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمّر بالذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية . فهى مأوى الشر ، ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة . قال الله تعالى ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [سورة يوسف : آية ٥٣] .

النفس اللوامة : هى التى تتورت بنور القلب تتورا قدر ما تنبتهت به من سنة الغفلة ، فتيقظت وبدأت بإصلاح حالها ، مترددة بين جهتى الربوبية والخلقية . فكلما صدرت منها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية وسنخها تداركها نور التنبيه الإلهى ، فأخذت تلوم نفسها وتتوب عنها مستغفرة ، راجعة إلى باب الغفار الرحيم . ولهذا نوّه الله بذكرها بالإقسام بها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [سورة القيامة : آية ٢] .

النفس المطمئنة : هى التى تم نورها بنور القلب ، حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة ، وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية ، متابعة له فى الترقى إلى جانب عالم القدس ، متزهة عن جانب الرجس ، مواظبة على الطاعات ، مساكنة إلى حضرة رفيع الدرجات ، حتى خاطها ربها بقوله ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فادْخُلِي فِي عِبَادِي . وادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [سورة الفجر : آيات ٢٧ - ٣٠] (١٢) .

وعلى الرغم من هذا التصنيف المتدرج لأنواع النفوس الثلاث ، أو بالأحرى حالاتها المختلفة ، فإن الصوفية المسلمين قد ركزوا اهتمامهم بصفة

خاصة على النفس الأمارة ، التى اعتبروها موطن الشر ، وهى مثل السكران الذى لا يفيق من سكره ، حتى أن أحدهم قال : أعدى أعدائك : نفسك التى بين جنبيك . ويقول الحارث المحاسبى : "قاخذرها ، وفتشها ، وخاصمها ، كما يخاصم الخصم الظلوم الخائن الموارب البليغ فى حجبته المزخرف القول الباطل بشدة بيانه (١٣) ويرى الحكيم الترمذى ، الذى وضع كتابين رائعين فى ترويض النفس وتأديبها (١٤) أن يكون أدبها بمنع الحلال عنها حتى لا تطمع فى الحرام !.

وقد ذهب كثير من الصوفية فى مقاومة النفس ومعاداتها إلى أقصى مدى . يعبر عن هذا الموقف أبو بكر الطمستانى بقوله : ما الحياة إلا فى الموت: أى ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس (١٥) .

ومع ذلك ، فقد اتخذ بعض الصوفية موقفا أكثر اعتدالاً من النفس ، يقوم على الاعتراف بحقيقتها ، وقدرتها على تحمل العقاب الذى يفرض عليها من الصوفى ، ويخلص هذا الموقف إلى أن موت النفس نهائياً لا يتم ، وإنما يمكن القول بأنها تبقى فقط مقهورة الهوى ، مسجونة الرغبات (١٦) .

والخلاصة أن دراسة النفس لدى الصوفية تعد مجالاً من أخصب مجالات الدراسة فى التراث الإسلامى ، لأنها تحظى بمادة وفيرة ، تفحص وترصد بدقة بالغلة كل الرغبات والنوازع والأحاسيس المرتبطة أو النابعة من النفس ، والتى تتحكم فى تصرفات الإنسان وسلوكه ، إلى جانب الأنوية المقترحة لأمرائها ، وكيفية تغلب الإنسان عليها (١٧) .

٤- فكرة المعرفة :

دخلت فكرة المعرفة إلى التصوف الإسلامى فى بداية القرن الثالث الهجرى ، وكان التصوف قبل ذلك ذا طابع عملى ، يقتصر على التعبد والزهد ومجاهدة النفس ، وما يتطلبه كل ذلك من أنكار وأوراد والتزام بنمط خاص من

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

السلوك فى المجتمع . أما أبرز من تحدث عن هذه الفكرة ، وصرح بأهميتها فى درجات الطريق الصوفى فهو ذو النون المصرى (ت ٢٤٥) الذى اعتبر أن العبادة لابد أن يسبقها ويصحبها وينتج عنها : معرفة الله تعالى .

عندما سئل ذو النون : من هو الصوفى ؟ أجاب بأنه مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق ، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق . ومعنى ذلك أنه الذى يجمع بين عمق الحكمة وصدق السلوك .

وهو الذى يقول : إذا صح اليقين فى القلب صح الخوف منه (تعالى) - فجعل عمل القلب تابعاً لليقين . ولا يقين إلا بمعرفة .

وهو يصرح عن اتجاهه قائلاً : مفتاح العبادة الفكرة .. ويؤكد أن العارف كل يوم أخشع ، لأنه كل ساعة أقرب . ويلاحظ أنه يطلق على الصوفى لقب العارف : إن العارف لا يلزمه (تعالى) فى حال واحدة ، إنما يلزم ربه فى الحالات كلها^(١٨) .

من هنا استحق ذو النون المصرى ، القادم إلى بغداد من صعيد مصر ، أن يكون رائد اتجاه المعرفة فى التصوف الإسلامى . صحيح أن هناك من سبقه ببعض العبارات المتفرقة فى هذا المجال ، لكنه كان أول من ظهر لديه بوضوح وإصرار هذا الاتجاه الذى جعل المعرفة جزءاً لا يتجزأ من بنية التصوف الإسلامى^(١٩) .

إن فكرة المعرفة لم تقتصر فقط على كونها من أهم أهداف الصوفى فى طريقه الروحى ، وإنما توسع الصوفية فى مصدرها ، ووسائلها الموصلة إليها ، وطبيعتها ، والعوائق التى تقف فى طريقها ، ثم المجالات الرحبة التى تنتجها لمن يصل إليها ، أو يقع فى قلبها .

وبالنسبة إلى مصدر المعرفة ووسيلتها ، فقد حسم الصوفية الأمر بأن أرجعوا مصدرها إلى الله تعالى ، نبع النور الذى يتجلى به على بعض عباده ، لكن بشرط أن يهئ هؤلاء أنفسهم لاستقباله . ولا يتم هذا الاستقبال عن طريق الجسد (الحواس) أو النفس . فالأول مظلم ، والثانية كدرة . وإنما عن طريق القلب الذى يتضمن هو الآخر عدة مستويات : السر ، وسر السر ، وسر سر السر .. أما العقل قد تركه الصوفية للفلاسفة والمتكلمين الذين وثقوا به ، واعتمدوا على براهينه ، مع أنه يصيب ويخطئ ، لأنه يأخذ معرفته عن طريق الحواس التى لا يوثق بأحكامها ، كما أنه يظل معرضا للأغراض والأهواء .. أما القلب فهو المرآة التى حينما تصفو من كدر الشهوات والتعلق بالدنيا تنعكس عليه أنوار المعرفة من الله تعالى مباشرة ، ولذلك لا يحتاج الصوفى إلى أن يبذل جهداً فى اكتسابها عن طريق الأدلة ، أو الكتب ، أو الناس . يقول أحدهم مخاطباً المحدثين والفقهاء : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت!

أما معوقات المعرفة فيرجعها الصوفية إلى تكرار الوقوع فى شهوات الجسد ، ومواصلة تعلق النفس بشئون الدنيا . وبالتالي ينبغى على الصوفى أن يبذل جهداً كبيراً لمحاولة التخلص من كل هذه العلائق البدنية والنفسية ، وهو ما أطلقوا عليه مصطلح (التخليّة) أو (التصفية) لكى يصبح قلب الصوفى مهيباً لاستقبال المعرفة الإلهية ، لكن المسألة لا تخضع هنا لقانون السبب والنتيجة ، فإن كل جهد يبذله الصوفى يتوقف - دائماً - على مشيئة الله تعالى وإرادته : فهو الذى يعطى ويمنع ، وهو أيضاً الذى إذا أعطى لم يكن لعطائه حدوده ، ولا لفضله نهاية ..

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

وأخيرًا ، متى يصبح الصوفى عارفا ؟ إذا تخلق بالأخلاق الإلهية ، وتتور قلبه باليقين ، وأصبح يرى نفسه ، وكل شيء من حوله بنور الله . أليس هو تعالى القائل : "صرت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به" يقول البسطامى : عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله .

وهكذا نلاحظ أن فكرة المعرفة عند الصوفية قد تحولت خلال تطورها، وبلورة مفاهيمها ، وتحديد مجالاتها على أيدى كبار الصوفية المسلمين إلى ما يستحق أن يطلق عليه مصطلح نظرية متكاملة ، وليس فقط مجرد فكرة بسيطة.

٥- فكرة الولاية :

أشهر من تحدث عن هذه الفكرة ، وبسط القول فيها ، بل وهوجم أيضا من أجلها هو الحكيم الترمذى (توفى فى أواخر القرن الثالث) .

لكن نشأة الفكرة ترجع كالعادة فى معظم أفكار التصوف الإسلامى إلى فكرة بسيطة ، ومستمدة من القرآن الكريم : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (سورة يونس آية ٦٢) ويقول القشيرى (ت ٤٦٥هـ) : الولى له معنيان :

أحدهما : من يتولى الله سبحانه أمره ورعايته . يقول الله تعالى : (وهو يتولى الصالحين) (سورة الأعراف آية ٩٦) فلا يكله إلى نفسه لحظه .

الثانى : من يتولى عبادة الله تعالى وطاعته . فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان .

ثم يعلق على المعنيين السابقين قائلاً : وكلا الوصفين واجب ، حتى يكون الولي ولياً ، يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء^(٢٠) .

لكن الصوفية لم يقتصرُوا على هذا المعنى البسيط للولي ، فراحوا يضيفون إليه معاني أخرى منها : قبوله للإلهام الإلهي ، وجريان الكرامات على يديه ، وتدرجه في المراتب حتى يصل إلى مرتبة القطب .

فإذا رجعنا إلى رائد فكرة الولاية في التصوف الإسلامي ، وهو الحكيم الترمذي ، وجدناه يفرق بين نوعين من الولاية :

أ- ولاية الصدق التي يمكن أن ينالها الصوفي بجهد ومداومة عمله ، ويسمى في هذه الحالة : ولي حق الله .

ب- ولاية المنّة التي تأتي هبة من الله تعالى ، عن طريق الاصطفاء ، ويسمى : ولي الله .

ويقرر الحكيم الترمذي أن ولاية الصدق تعم جميع المؤمنين ، الذين عملوا صالحاً ، وصدقوا المرسلين ، في حين أن ولاية المنّة قاصرة فقط على أحبّاب الله وأصفيائه ، الذين اجتباهم الحق لنفسه ، وهدهم به إليه^(٢١) .

أما بالنسبة إلى العلاقة بين الولاية والنبوة ، وهي المسألة التي هوجم الصوفية كثيراً بسببها ، فإن أحداً من الصوفية الذين قالوا بالولاية لا يصرح أبداً بتفضيل الولاية على النبوة ، بل إننا نجد هنا رأيين :

الأول : يجعل أعلى مستوى في الولاية يأتي قبل أدنى مستويات النبوة . وبالتالي فالأفضلية مطلقة للنبي على الولي .

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

والثانى : يذهب إلى أن دائرة الأولياء تشمل الأنبياء . وعلى هذا الأساس فإن كل نبي ولى ، وليس كل ولى نبيا .

لكن الدعوى التى هوجم الصوفية من أجلها فهى التى تتعلق بالكتاب الذى ألفه الحكيم الترمذى بعنوان (خاتم الأولياء) ، وفيه يذهب إلى أنه كما يوجد للأنبياء خاتم ، وهو هنا بمعنى المركز أو صاحب المقام الأسى ، فإن للأولياء أيضا خاتما . وهذا الخاتم لا يتوقف وجوده على شخص معين فى عصر محدد ، وإنما هو عبارة عن مجموعة خصائص يمكن أن تتوافر فى أفراد معينين فى أزمنة متعاقبة ، أى أن هذه الولاية مستمرة إلى يوم القيامة بينما النبوة قد انقطعت بوفاة الرسول محمد ﷺ (٢٢) .

وعلى الرغم من هجوم فقهاء المسلمين عموما على فكرة الولاية الصوفية ، خوفاً من أن تتوازى أو تتقاطع مع النبوة ، فإن هذه الفكرة قد صمدت واستمر الاقتناع بها على المستوى الشعبى ، وهذا أحد الأسباب فيما نشاهده حتى اليوم من إقامة الموالد والاحتفال بها لكبار شيوخ الصوفية - الأولياء ، وما أقيم على قبورهم من أضرحة تزورها العامة ، ويتوسلون عندها لقضاء حوائجهم !

٦- فكرة الملامة :

بدأت الملامة عند الصوفية على مستوى نفسى وشخصى خالص ، لكنها انتقلت بعد ذلك إلى المجال العملى لتصبح شعاراً لجماعة مخصوصة من الصوفية عرفوا باسم الملامية ، أو أهل الفتوة .

وترجع الفكرة فى أساسها إلى الآية القرآنية التى تصف النفس بأنها لَوَامَةٌ ﴿لَوْأًا أُنْفِثُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [سورة القيامة : ٢] والمقصود بها النفس التى تتردد بين الوقوع المتكرر فى المعصية والإحساس المتكرر أيضا بالذنب ، فهى

تلوم ذاتها أو يلومها صاحبها باستمرار ، ولهذا استخدمت صيغة المبالغة :
لؤامة ، أى كثيرة اللوم لذاتها على ما صدر منها .

وفى أدبيات التصوف المبكر ، سوف نجد من يحاسب نفسه فى المساء
على ما ارتكبه طوال اليوم من أفعال ، ثم على ما تقوّه به من أقوال ،
وأخيرا - وهذا مهم - على كل ما جال بخاطره من نوايا ورغبات شريرة !
وهكذا فإن لوم النفس يبدأ من محاسبتها ، التى اشتهر بها الحارث المحاسبى
(ت ٢٤٣هـ)^(٢٣) وتحدث عنها كثيرا الحكيم الترمذى (ت ٢٨٥هـ)^(٢٤) كما
نجد لدى ابن عربى (ت ٦٣٨هـ) كتابا كاملا فى محاسبة النفس بعنوان (روح
القدس فى مناصحة النفس)^(٢٥) .

أما مؤرخو التصوف المسلمون فقد أرجعوا نشأة طائفة الملامتية إلى
النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وبالتحديد فى منطقة خراسان^(٢٦) ،
حيث ظهر فيها صوفية كبار من أمثال حمدون القصار (ت ٢٧٠هـ) ، وأبى
حفص النيسابورى (ت ٢٦٧هـ) تبعهما عدد كبير من شباب الصوفية ، الذين
التزموا ببعض التعاليم ، وطبقوا فى حياتهم اليومية بعض الأساليب الخاصة
بهم ، والتى حددها لهم شيوخهم^(٢٧) .

سئل حمدون القصار عن طريق الملامة ، فقال : ترك التزين للخلق
بكل حال ، وترك طلب رضاهم فى نوع من الأخلاق والأفعال ، وألا يأخذك
فيما عليك الله لومة لائم^(٢٨) .

وهكذا نشأت طائفة الملامتية ، معتمدة على مبدئين :

الأول : لوم النفس على كل ما يعتمل فيها من رغبات ونزعات وإعجاب بالذات
نتيجة القيام بحق العبادة ، وحسن معاملة الخلق .

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

والثانى : استحقاق أو استجلاب لوم الناس على سلوك أتباعها ، الذى كان يخرج أحيانا - وعن طريق القصد - عن العرف ، أو لا يلتزم تماما بالمظاهر الدينية السائدة فى المجتمع^(٢٩) .

لقد أراد الملامتية أن تكون عبادتهم وكل أفعالهم الخير خالصة لله تعالى ، متجهة فقط إليه ، لا يهتمهم على الإطلاق أن يطلع الناس عليها ، لكى يكافئوهم أو يشوا بها عليهم ، بل إنهم كانوا يعملون بكل جهد لإخفائها عن الناس ، وهذا ما تطلب منهم أن يقوموا - أحيانا - ببعض الأفعال الشائنة لكى يجلبوا على أنفسهم سخط الناس ، واحتقارهم ، مع أنهم فى أعماقهم ملتزمون غاية الالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه .

إننا هنا أمام موقف نادر وعجيب ، لأنه إذا كان كل إنسان فى العالم يهمه بل ويسعده أن يحظى برضا الناس ، وإعجابهم بسلوكه الطيب ، ويحصل منهم نتيجة ذلك على التكريم والشهرة ، فإن هذه الطائفة من الصوفية قد وجدت فى هذا كله خداعا للنفس ، ورياء للناس ، وانكبأبا على مظاهر الحياة الدنيا التى لا تساوى شيئا يذكر فى ميزان العمل الصالح ، المقصود به وجه الله تعالى .

وعلى الرغم من النقد الذى وجه إلى طائفة الملامتية من الفقهاء وبعض الصوفية أنفسهم ، فقد استمر شيوخ الملامتية وأتباعها يقومون بدورهم الذى اختاروه لأنفسهم ، ويزداد اتصالهم بالطبقات الفقيرة والمهمشة فى المجتمع ، يساعدون العجزة والأرامل واليتامى والمساكين ، ويسعون فى قضاء مصالح المحتاجين ، ولعل هذا ما جعلهم يستحقون أن يُطلق عليهم لقب "الفتيان"^(٣٠) .

ومن المؤكد أن دراسة هذا الجانب من حياة الصوفية المسلمين تكشف لنا بزوغ اتجاه عملى وإيجابى لدى الصوفية المسلمين ، فضل أصحابه أن

يهجروا تعاليم التوحد والعزلة والانفراد بالنفس ، لكى يشاركوا المجتمع فى همومه العميقة ، ويمدوا يد العون للفئات المحرومة فيه .

٧- فكرة الفناء :

عندما دخل الصوفية المسلمون فى مراحل متقدمة من تجاربهم الروحية، تجاوزت مرحلتى التعبد والزهد ، إلى استبطان الخواطر والأحاسيس، والغوص فى أعماق الذات من أجل تطهيرها وتهيتها لاستقبال التجليات الإلهية، بدأوا يتحدثون عن (الحب الإلهى) الذى قد يتشابه مع (الحب الإنسانى) من حيث التعلق بالمحبوب والانشغال به ، ومحاولة الاقتراب منه ، لكنه يختلف عنه فى أن المحبوب هنا هو الله تعالى ، الذى لا تتركه الأبصار ، ولا تحيط به الأفكار .. فى الحب الإنسانى : المحب والمحبوب كلاهما مخلوق ، أما فى الحب الإلهى فإن المحب إنسان ، والمحبوب هو الله الخالق . وهذا يعنى أن التواصل الذى هو غاية الحب الإنسانى لا يمكن أن يتحقق بالمعنى الحسى المتعارف عليه فى الحب الإلهى ، وإنما سوف نجد الصوفى - العاشق مأخوذا بعواطفه فى انتظار أن تفيض عليه أنوار المحبوب ، أو التجليات التى عندما تومض فى صدره ، ولا يمكن للغة البشرية مهما كان اتساعها وتنوعها أن تعبر بدقة عنها .

من هنا راح الصوفية الذين هاموا بحب الله تعالى يتقوّهون ببعض العبارات التى اعتبرها علماء الإسلام وبعض شيوخ الصوفية أنفسهم : (شطحات) أى خروجاً عن المؤلف والمتعارف عليه فى لغة الدين المنضبطة . وفى (اصطلاحات الصوفية) لابن عربى أن الشطح "عبارة عن كلمة عليها رائحة دعوى ورعونة ، وهى نادرة أن توجد من المحققين" ومع ذلك فإنها وردت إلينا من صوفية كبار كالبيسطامى ، والحلاج ، والنفرى ، وابن الفارض ،

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

وجلال الدين الرومى ، وأحيانا من ابن عربى نفسه ، وتلميذه المتحمس عبد الكريم الجبلى^(٣١) .

إن الفناء يعنى ببساطة أن يدخل الصوفى فى حالة محو صفاته البشرية، وغيباه تماما عن رؤية العالم بما فيه نفسه . وقد يقال إنها حالة عدمية ، قريبة جدًا من حالة النرفانا البوذية أو الهندوسية ، لكن صوفية المسلمين أسرعوا بضمها إلى حالة أخرى ، هى (حالة البقاء) أى عودة الصوفى من ذاك الفناء إلى الإحساس بذاته ، والوعى بنفسه ، ورؤية العالم من جديد ، وهكذا يبدو الفناء مثل رحلة خاطفة فى المجهول تتبعها عودة إلى المعلوم : غياب فى ملكوت الروح ثم عودة إلى عالم الحس .

والفناء كما يأتى نتيجة قصد محدد وإعداد سابق من الصوفى ، فإنه قد يكون أيضا مفاجئا وصادما. يقول ابن عربى فى تعريف (البوادة) : ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة ، إما موجب فرح ، أو موجب ترح" و(الهجوم) بأنه : "ما يرد على القلب بقوة الوقت بغير تصنع منك" ، ويعرف (الاصطلام) بأنه "توع ولّه يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه" ، و (الواقعة) : "ما يرد على القلب من ذلك العالم .. بأى طريق من خطاب أو مثال" و (الصعق) بأنه : "الفناء عند التجلى الإلهى" ، وأخيرا (الحقيقة) بأنها : "سلب آثار أوصافك عنده بأوصافه ، بأنه الفاعل بك فيك منك.. لا أنت" ^(٣٢) .

إن مجموع النصوص الواردة فى الفناء تكون مادة غزيرة يمكنها أن تجعل منها نظرية متكاملة ، بشرط أن يدخل فيها ما ورد عن الصوفية فى مجالى الحب الإلهى ، والشطحات الصوفية . أما اعتبار أكثر الدارسين للتصوف الإسلامى الحب الإلهى كنظرية صوفية ، فهذا غير دقيق ، لأن الحب

الصوفى ليس سوى تيار سرى فى شرايين نظريات أخرى بدءا من الحلول ،
ومرورا بالإشراق حتى وصل إلى وحدة الوجود .

٨- فكرة الحلول :

ارتبطت هذه الفكرة حصريا بالحلاج ، الذى تم إعدامه سنة (٣٠٩هـ) بحكم من الفقهاء ، وتصديق من السلطة ، وصمت شبه كامل من صوفية عصره . وقد تمثلت جريمته التى أصرّ على عدم نكرانها فى أنه أعلن فى إحدى حالاته الجذبية قائلا : "أنا الحق" وأيضا : "ما فى الجبة غير الله!" ومعنى هذا ببساطة أن الله تعالى قد حل فيه ، وهو ما يصطدم مباشرة بأحد مبادئ العقيدة الإسلامية التى تفرق على نحو حاسم بين الله تعالى ، خالق كل شيء ، والإنسان المخلوق .

فمن أين جاءت هذه الفكرة للحلاج ؟ يقول المستشرق الإنجليزى ينكلسون : "كان من الطبيعى أن تصدم فكرة "الرجل الإلهى" God man الشعور العام صدمة عنيفة فى مختلف بقاع العالم الإسلامى ، اللهم إلا فى غربى آسيا وأوسطها ، حيث كان رعايا أكاسرة فارس يرون فيهم آلهة ، وحيث استقرت مذاهب :

التجسيد Incarnation

والتشبيه Authroporphism

والتناسخ Metiimpsychosis (٣٣)

لكن المستشرق الفرنسى ماسينيون ، الذى درس الحلاج ومذهبه دراسة عميقة ، يجعل قوله بالحلول قريبا جدًا من المذهب المسيحى ، الذى يقول بتجسد الله فى عيسى ، خاصة وأن الحلاج يقول (شعرا) :

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

سبحان من أظهر ناسوته سرسنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا فى صورة الآكل والشارب^(٣٤)

لكننا - ودون دفاع عن الحلاج - لا ينبغي أن نهمل التراث الإسلامى نفسه ، وبخاصة الحديث القدسى الذى جاء فيه : "ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته صرت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله الذى يمشى عليها"^(٣٥) ومع ذلك فإن فهم المسلمين عموما لهذا الحديث القدسى لم يتجاوز مستوى الرضا الإلهى عن الإنسان الذى يلتزم بالشعائر الدينية المفروضة عليه ، ثم مكافأته على نحو أوسع لمن يزيد عليها بالإكثار من النوافل غير المفروضة . فكما يقدم سوف يستقبل ، وعطاء الله أكبر : أليست الحسنه بعشر أمثالها ؟! وعمل الخير كسنبلة القمح التى تحتوى على سبع سنابل فى كل منها مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء^(٣٦) ؟!

لكن الحلاج دفع بأمثال هذه الأقوال إلى أبعد مدى ، معتمداً على تيار الحب الإلهى ، الذى بدأ عند رابعة العدوية (ت ١٨٥هـ) مقصوراً على حب الإنسان لله لذاته ، أى دون رغبة فى ثوابه ، ولا خوف من عقابه - أصبح هذا الحب لدى الحلاج علاقة امتزاج ، بل وتوحد ، كما يظهر فى قوله (شعرا) :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا^(٣٧)

إن شناعة القول بالحلول من ناحية ، وقسوة العقوبة التى نزلت بصاحبه من ناحية أخرى - أوقفنا القول به على نحو صريح ، وإن راح فلاسفة الصوفية فيما بعد يشيرون إلى الحلاج - عَرَضاً أو ببعض التصريح الوقور -

محاولين تلمس العذر له ، ومبررين دعواه بأنها جاءت نتيجة "حالة وجد زائدة عن الحد" ، أو كما نقول فى التعبير الحالى "زلة لسان" !

٩- فكرة الإشراق :

ترتبط هذه الفكرة ، بل وتكاد تنحصر فى السهروردى (المقتول سنة ٥٨٧هـ) ، والذى لم يعمر أكثر من ٣٨ عاما ، ألف خلالها حوالى خمسين كتابا ورسالة ، بعضها بالعربية والأخرى بالفارسية ، ظهر فيها تقريبا كل ما كان يحيط بها من مذاهب وتيارات دينية ، وقد استطاع هذا الفيلسوف الصوفى أن يصوغ أفكاره التى يمكن ربطها بعناصر أفلاطونية ، وأفلوطينية ، وفارسية وزرادشتية ، ومانوية ، وغنوصية .. مع ملاحظة أنه وقف من منطق أرسطو موقفا نقديا على خلاف معظم فلاسفة المسلمين السابقين عليه والمعاصرين له الذين أبدوا إعجابهم الشديد والكامل به ، وبسببه اعتبروه : المعلم الأول .

وتعنى كلمة "الإشراق" حالة الكشف الصوفى الناتج عن فيض الأنوار ، من النور الأقدس ، والذى يظل ينتزل على قلوب عباده المتجربين ، فينطبع فيها حسب درجة صفائها . لكن بلوغ هذا النور المشرق لا يصل إليه الصوفى إلا بالتخلص من كل علائق الجسد ، والحياة المادية ، والتجرد الكامل للحياة الروحية الخالصة . وهنا يتميز السهروردى عن باقى صوفية المسلمين باشتراط معرفة الصوفى بالفلسفة العقلية . وهو يقسم الفلاسفة الصوفيين ، أو الحكماء ، إلى ثلاثة أنواع :

- حكيم إلهى ، متوغل فى التأله ، عديم البحث .

- حكيم بحاث ، عديم التأله .

- حكيم إلهى ، متوغل فى التأله والبحث .

الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى

وبالطبع يضع السهروردى نفسه فى هذا النوع الثالث ، الذى يجمع بين التصوف والفلسفة (٣٨) .

ويرى د . إبراهيم مذكور أن الفلسفة عند السهروردى أقرب إلى الوسيلة منها إلى الغاية ، وإن تكن وسيلة ضرورية ولازمة . ذلك لأنه متصوف قبل أن يكون فيلسوفا ، وقد انتهى من فلسفته إلى (حكمة الإشراق) التى تعنى : حكمة الفيض والنور ، حكمة الكشف والتجلى ، وتتميز بأمور ثلاثة متصلة ومتكاملة ، وإن غاب بعضها عن البال أحيانا ، وهى أنها :

أولا : تعتبر النور مصدر الوجود والمعرفة ، فهو أصل كل شىء ، ولا كشف ولا وصول بدونه .

ثانيا : تؤاخذ بين الروحانيين جميعا ، شرقيين كانوا أو غربيين . ومن هذه الناحية يعد السهروردى فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين لفتوا النظر إلى العناية بالفكر الشرقى القديم .

ثالثا : تقوم حكمة الإشراق على محاولة الاتصال بعالم النور ، وذلك هو الخلاص والسعادة التى ليست وراءها سعادة !

ويخلص د . مذكور إلى أن "المذهب الإشراقى على هذا النحو : إنتاج سهروردى خالص ، تأثر فيه صاحبه بمؤثرات مختلفة ، وأخذ عن فلاسفة وصوفية سابقين ، ولكنه فى صورته الكاملة من صنعه وحده" (٣٩) .

١٠ - وحدة الوجود

كما ارتبطت فى تاريخ التصوف الإسلامى فكرة الولاية بالحكيم الترمذى ، وفكرة الحلول بالحلاج ، وفكرة الإشراق بالسهروردى .. فإن فكرة وحدة الوجود ترتبط على نحو حصرى بابن عربى (ت ٦٣٨ هـ) الذى بثها

فى كل مؤلفاته ، سواء كانت مؤلفات ضخمة كالفتوحات المكية أو رسائل صغيرة لا تزيد عن عدة صفحات (٤٠) .

ونقوم فكرة وحدة الوجود فى أساسها على أن الوجود (المقابل للعدم) حقيقة واحدة . وأنه لا يتعدد أو يتنوع إلا من حيث الاعتبارات . فالوجود الحق لله تعالى . وهو وجود ذاتى لا يشاركه فيه أحد . أما وجود الكائنات الأخرى فهو عارض ومتعدد بحسب ما يترأى لنا . ولا يستطيع غير الصوفى - العارف أن يرى حقيقة الوحدة الوجودية فى الله والمخلوقات . وابن عربى يميز دائماً وبصورة حاسمة بين وجود الله الخالق ، ووجود الكائنات المخلوقة ، والمفتقرة إليه تعالى فى وجودها ، فهو الذى أفاض عليها هذا الوجود ، ومازال يحفظه عليها من خلال خلقه المتجدد لها ، وتجلياته بأسمائه الحسنى على كل مظاهرها وأشكالها (٤١) .

ماذا يعنى ذلك ؟ أن العارف يرى فى جميع الكائنات مجرد صور وتجليات للأسماء الإلهية ، وهى تتفاوت فيها بينها فى المكانة والشرف حسب ما تقبله من تلك التجليات . وما ورد فى الشرع من تفصيل لأسماء الله الحسنى ، فهى صفات تظهر فى هذا العالم وتلازمه من لحظة نشأته حتى منتهاه . وإذا كان الحيوان والنبات ينعمان بالحياة ، فإن الجماد أيضاً حى . والعارف فقط هو الذى يمكنه أن يرى فيه تلك الحياة التى لا يكاد يلحظها سائر الناس ، الذين هم فى غفلة وحجاب عن حقيقة تلك الوحدة الوجودية (٤٢) .

أما بالنسبة إلى الإنسان فهو - عند ابن عربى - أشرف أنواع الكائنات . والله تعالى هو الذى منحه هذا التشريف : منذ خلقه على صورته ، وجعله خليفة ، وأسجد له ملائكته ، وأتاح له فرصة التخلق بالأخلاق الإلهية ، التى تتراوح فى عمومها بين صفتى الجلال والجمال . إن التكريم الإلهى للإنسان لا

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

حدود له ، وبالتالي فإن الآفاق التى يمكن أن يبلغها هذا المخلوق ، المحبوب من الله تعالى ، أوسع وأعلى من أية آفاق أخرى متاحة لأى مخلوق آخر .. فهو الذى يشرف بعبادته الله ، ويرتفع بعبوديته له . قال تعالى ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [سورة العلق : آية ١٩] أى أن السجود الذى هو منتهى العبودية لله .. هو طريق القربة الذى هو غاية الحرية .

ويؤكد د . أبو العلا عفيفى ، وهو من أهم الدارسين لابن عربى ، أن وحدة الوجود لديه ذات طابع روحى ، وليست مادية . ومعنى هذا أنها قريبة بل ومنبثقة مما يسمى لدى الصوفية : (وحدة الشهود) ، أى الحالة الروحية العليا التى يشعر بها الصوفى خلال تجربته الروحية أنه قد ذاب عشقا فى محبوبه الأسمى ، وفنى فيه ، واتحد به (٤٣) .

وأخيراً لا يمكن القول بأن فكرة ابن عربى ، أو بالأحرى مذهبه المتكامل فى وحدة الوجود قد تم قبوله فى العالم الإسلامى ، ولكنه ظل موضع رفض واستنكار من عدد كبير من العلماء والفقهاء ، ومن أبرزهم ابن تيمية (ت ٧٥٨ هـ) . وفى المقابل من ذلك ، فإن تلاميذ ابن عربى ، وعشاق فكره قد تمسكوا بالفكرة ، وراحوا يدورون حولها . ومن أشهرهم تلميذه عبد الكريم الجبلى (ت ٨٠٥ هـ) بالإضافة إلى معظم صوفية الفرس ، وأشهرهم عبد الرحمن جامى (ت ٦٧٢ هـ) .

خاتمة ونتائج :

هذه الأفكار العشرة التى عرضناها عرضاً مختصراً للغاية مع حرصنا فى نفس الوقت على الوضوح - لا تمثل (كل) الأفكار التى ظهرت فى التصوف الإسلامى ، ولكنها بالتأكيد هى أهمها ، وأبرزها ، وأكثرها شهرة وإثارة للجدل فى نفس الوقت . وقد حاولنا أن نلتزم فى عرضها بأكبر قدر من

الموضوعية ، دون أن نحكم لها أو عليها ، تاركين للباحثين الجدد اختيار ما يريدون منها للتعلم في دراسته ، والكشف عن نشأته وتطوره ، ومدى قبوله أو رفضه في المجتمعات الإسلامية ، مع مقارنته بما يماثله في التصوف الأجنبي .

إن أفكار التصوف الإسلامي لم تختف تماماً من حياة المسلمين ، بل الكثير منها مازال يعيش في تصوراتهم ، ويستقر في وعيهم الجمعي وسلوكهم اليومي . من هنا تأتي أهمية هذه الأفكار ، خاصة إذا قارناها بالأفكار الفلسفية أو الكلامية التي ظهرت معها ، ولم يقدر لها أن تحظى بنفس عمرها : بل إنها كانت قصيرة الأجل ، وما لبثت أن أصبحت فصلاً من التاريخ !

أما في مجال الدراسات المقارنة ، فإن بعض الأفكار الصوفية التي عرضناها يمكن أن تكون موضوعاً جيداً ومثمراً للغاية لمقارنتها ببعض الأفكار الفلسفية العالمية ، لكن أمثال هذه الدراسة المقارنة تتطلب باحثين يكونون على إلمام كاف بالثقافة الإسلامية من ناحية ، والثقافات العالمية في لغاتها الأصلية من ناحية أخرى . كذلك فإننا ينبغي ألا نعول كثيراً في هذه الدراسات على مسألة التأثير والتأثر ، وأن ينصب اهتمامنا بالدرجة الأولى على مقارنة الأفكار ، وبيان أوجه التشابه أو حتى التضاد بينها . وفي هذا العمل إثراء للفكر الإنساني ، وبيان لقيمة الأفكار الإسلامية في إطاره العام .

ومن المهم في هذه الخاتمة أن نوجه الأنظار كذلك إلى أهمية دراسة الفكر الشرقي (قديمه وحديثه) ومدى صلته أو تفاعله أو حتى تشابهه أحياناً مع بعض الأفكار الرئيسية في التصوف الإسلامي . لقد مضى زمن طويل والدارسون من المستشرقين والمسلمين على السواء ينفقون وقتهم وجهدهم في إيجاد الصلات بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني القديم ، أو الفكر الحديث

== الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى ==

أحياناً ، وقد آن الأوان للاتجاه نحو الشرق الذى كان قريباً جداً من المسلمين ، وخاصة فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخهم .

يبقى أمر أخير ، وهو أن دراسة التصوف الإسلامى تقتضى عقلية متفتحة لفهمه أولاً ، والتعمق فيه ثانياً .. أما الحكم عليه فلا بد أن يأتى فى المرحلة الأخيرة ، أو لا يكون نتيجة أحكام الآخرين عنه . فكثير من هذه الأحكام وقفت على الظاهر ، دون أن تتفد إلى الجوهر ، كما أنها قامت فى معظمها على رفض مبدئى للتصوف والصوفية ، دون قراءتهم قراءة مباشرة ، وهذا العيب ظل أحد أسباب سوء الفهم المستمر والمتزايد الذى أداّن التصوف ، بمجرد مشاهدة ما يرتكبه المنتسبون إليه فى عصرنا الحاضر من أفعال منافية تماماً لمبادئه الأساسية أو تعاليمه الأولى .

ويبقى فى النهاية أن نشير إلى ما تركه الصوفية المسلمون لنا من أدب رفيع ، مكتوب باللغات العربية والفارسية والتركية . وهذا الأدب ما زال بحاجة شديدة إلى اكتشاف كنوزه ، وتقديمها للناس فى شكل معاصر ، مع بيان قيمتها فى مجال الآداب العالمية .

* *

هوامش البحث :

- ١- انظر الفصل الذى كتبناه بعنوان "هل توجد بذور للتصوف الإسلامى فى القرآن والسنة" فى كتابنا (معالم التصوف الإسلامى) ص ٤١-٥١ ، نهضة مصر ٢٠١٠ .
- ٢- انظر الفصل الخاص لعلم التصوف من الباب السادس : مقدمة ابن خلدون . ط . الشعب . ص ٤٣٨ .
- ٣- انظر : كشف المحجوب للهجویری ، الباب ١٤ ، ج ٢ ترجمة د . اسعاد قنديل ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٥ .
- ٤- انظر : أسماءهم وأخبارهم فى : حلية الأولياء للأصفهانی .
- ٥- انظر : د . محمد مصطفى حلمی ، الحياة الروحية فى الإسلام .
- ٦- رسالة القشیری ، ص ٦٠ ، ٦١ . ط الحلبی ١٩٥٩ .
- ٧- إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، ص .
- ٨- السابق ، ٤/٤١٣ .
- ٩- السابق ، ٤/٤٢٠ .
- ١٠- السابق ، ٤/٢٢١ .
- ١١- الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، والمال : ملك الأعيان والقدرة عليها ، الإحياء . ٢٢٢/٤ .
- ١٢- انظر : اصطلاحات الصوفية ، تحقيق د . محمد كمال جعفر ، ص ٩٤-٩٥ .
- ١٣- الرعاية لحقوق الله ، ص ٧٣ . تحقيق د . عبد الحليم محمود . ط . دار المعارف القاهرة ١٩٨٤ .
- ١٤- الرياضة ، تحقيق آربرى ، د . على حسن عبد القادر . ط . الحلبی . القاهرة ١٩٤٧ .
- ١٥- ١٦- انظر كتابنا : معالم التصوف الإسلامى ، الفصل الخاص بموقف الصوفية من النفس . ط . نهضة مصر ٢٠١٠ .

- الأفكار الرئيسية في التصوف الإسلامي**
- ١٧- انظر دراستنا لكتاب روح القدس في مناصحة النفس ، الذي حققناه لابن عربي ، ص ٥٣-٧٢ ط . الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٥ .
- ١٨- انظر : كتابنا معالم التصوف الإسلامي (السابق) ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
- ١٩- السابق ، ص ١٢٤ .
- ٢٠- رسالة القشيري ، ١٢٨ .
- ٢١- انظر كتابه : خاتم الأولياء ص ١١٧ وما بعدها ، بتحقيق د . عثمان يحيى . بيروت ١٩٦٥ .
- ٢٢- السابق ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، وكذلك دراستنا وتحقيقنا لرسالة ابن عربي : الولاية والنبوة - مجلة ألف العدد الخامس ١٩٨٥ .
- ٢٣- انظر كتابه الرائع : الرعاية لحقوق الله .
- ٢٤- في كتابيه : الرياضة ، وأدب النفس .
- ٢٥- وهو عبارة عن محاسبة دقيقة جدًا ، وحوار متواصل بينه وبين نفسه .
- ٢٦- انظر كتاب السلمي : أصول الملامتية ، ص ١٤٣ وما بعدها . بتحقيق د . عبد الفتاح الفاوي . مطبعة الإرشاد ١٩٨٥ ، وقد جمع السلمي في رسالته ٤٠ أصلًا للملامتية .
- ٢٧- السابق ، ص ١٤٧ .
- ٢٨- السابق ، ص ١٤٤ .
- ٢٩- د . حامد طاهر ، معالم التصوف الإسلامي ، ص ١٣١ .
- ٣٠- انظر : فصل الملامتية وأهل الفتوة ص ١٣١-١٣٥ في كتابنا السابق .
- ٣١- انظر في عرض بعض هذه الشطحات ومحاولة الدفاع عنها : الطوسي في كتابه : اللمع في التصوف ص ٤٣٥ وما بعدها ، وكذلك مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ وما بعدها .
- ٣٢- اصطلاحات الصوفية لابن عربي .

- ٣٣- نيكلسون ، التصوف فى الإسلام ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ترجمة نور الدين شريف ط .
الخانجى ١٩٥١ .
- ٣٤- السابق ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، والطواسين للحلاج ، ص ١٣٠ .
- ٣٥- الأحاديث القدسية ، ص ٤٣ وما بعدها .
- ٣٦- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة : ٢٦١] .
- ٣٧- الطواسين ، ص ١٢٧ .
- ٣٨- حكمة الاشراق ، ص ١٣ ، ١٤ .
- ٣٩- بحث بعنوان "بين السهروردي وابن سينا" فى الكتاب التذكارى عن السهروردي ص ٦٥
وما بعدها - الهيئة المصرية للكتب - القاهرة ١٩٧٤ .
- ٤٠- حصل د . عثمان يحيى من جامعة السوربون بباريس على الدكتوراة فى موضوع
إحصاء مؤلفات ابن عربى وتوصيفها من مكتبات العالم . وقد عدّ له من المؤلفات
الموثقة حوالى خمسمائة كتاب ورسالة .
- ٤١- انظر : أبو العلا عفيفى ، الفلسفة الصوفية عند محبى الدين بن عربى ، ص ١٠٠
ترجمة د . مصطفى لبيب . دار الكتب والوثائق القديمة ٢٠٠٩ .
- ٤٢- انظر كتابه : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، ص ١٨٧ وما بعدها .
دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٤٣- السابق ، ص ١٩٩ .

* * *

